# المبحث الأول

## المكان المحبب ( الأليف )

وهو كل مكان شعرنا فيه بالدفء، والحماية وتفاعلنا معه، وترك بصماته بشكل واضح على ذاتنا بحيث لا يمكن أن تنمحي تلك البصمات لشدة رسوخه وتمكنه في أذهاننا [١].

والأماكن الأليفة يمكن أن نعرفها من خلال التجربة ومن خلالها تتحقق ذاتنا، وبدونها نبقى مضطربين وغرباء [٢] فهي ملتقى الأحبة ففيها الألفة والدفء، والعاطفة والحنان والجمال، وهذا المكان قد يكون مدينة أو منزلا أو روضا أو بستانا ... وكل ما له أثر مثقل في نفس الإنسان.

إن المكان الأليف لدى الإنسان (( هو دائما المكان المحبب ووظيفته في الشعر أن يشحن الذاكرة باستمرار بشتى الصور الباعثة على الحياة الإنسانية الدافئة)) [٣] وفي هذا المكان نلمس علاقة ارتباط بين الذات الإنسانية والمكان، هذه العلاقة الارتباطية بين الساكن والمسكن أشبه بأن تكون علاقة الروح بالجسد والساكن بالمسكن لذلك كان له حضور دائم في الوجدان البشري.

وزيادة على كون المكان الأليف هو مكان المعيشة المقترن بالدفء والحنان فإن ثمة حماية لهذا المكان من الخارج المعادي وتهديداته ويمنح هذا المكان الحلم والتذكر والسعادة [٤].

وعلى الرغم من كل هذا فإن أهمية المكان ازدادت في الوقت الحاضر فضلا

---

(١) ينظر: البناء الفني في الرواية العربية في العراق، د. شجاع مسلم العاني، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ٢٠٠٠م، ٩٩؛ الوصف في الرواية العراقية، عبد الأمير مطر الساعدي (رسالة ماجستير)، كلية الآداب، جامعة بغداد، ٢٠٠٠م، ٩٨.

(٢) ينظر: حواريات المكان، إدوارد هال، ترجمة: طاهر عبد مسلم، مجلة الثقافة الأجنبية، وزارة الثقافة والإعلام، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ع٣، ٤، ١٩٩٧م، ٣٩.

(٣) المكان في الشعر العربي قبل الإسلام، ١٢٥.

(٤) ينظر: جماليات المكان، جاسنون باشلر، ٤٥.

عن اختلاف رؤية الإنسان وموقفه تجاهه فهو ((ليس الحيز الذي يحتوينا ويوفر الحماية والدفء لنا فحسب وإنما هو ذلك الكائن الذي يحيا في دواخلنا ويورثنا قساوته وسيولته وطيبته وبشاعته))[١].

وقد استطاع الشاعر الأندلسي أن يتآلف مع المكان الجديد على الرغم من قساوة الظروف بالنسبة إلى العرب لا سيما في بداية الفتح وما يحيط بهم من صراع مع الأسبان بلغ ذروته[٢] فهذا المكان هو ((فردوس ثر الجمال اكتسب جوا عبقا وظلالا وارفة وجبالا شامخة وأنهارا جارية .. شحذت قرائح الشعراء وأسرت قلوبهم))[٣]. وراحوا يستشفون وينعمون في ذلك المكان بل ووجدوا فيه كل مقومات المكان الأليف على الرغم من بعده عن المشرق.

ومن الأماكن التي ألفها الشاعر الأندلسي هو المكان الحضري فهذا ابن عبد ربه يصف لنا منية كنتش حيث يقول:

ألما على قصر الخليفة فأنظرا ... إلى منية زهراء شيدت لأزهرا
مزوقة تستودع النجم سرها ... فتحسبه يصغي إليها لتخبرا
هي الزهرة البيضاء في الأرض ... لها الزهرة الحمراء في الجو مغفرا
ألبست ... لمبصرها لو أنه كان أبصرا
يود ودادا كل عضو ومفصل ... بدا الصبح من أعرافه الشم مسفرا
بناء إذا ما الليل حل قناعه ... إذا أكثروا في وصفه كان أكثرا
تعالى علوا فات عن كل واصف ... تلبس وجه الشمس ثوبا معصفرا [٤]
ترى المذية البيضاء في كل شارق

فهنا وجه ابن عبد ربه مشاعر الدفء تجاه ذلك المكان فهو يخاطب صاحبيه أن

(١) شعرية المكان في الرواية الجديدة، ٢٩٨-٢٩٩.
(٢) ينظر: ظهر الإسلام، د. أحمد أمين، مكتبة النهضة، القاهرة، ط٢، ١٩٥٩م، ٣/٢٣٠.
(٣) مدخل إلى الأدب الأندلسي، د. يوسف طويل، دار الفكر اللبناني، بيروت، ٨١.
(٤) ديوان ابن عبد ربه، ٦٨.

يعرجا إلى القصر، ليروا هذه المذية التي زينت للأمير فكأنها كوكب الزهرة بين النجوم ترنو إليها الأنظار، فهذا المكان أثر في نفسية الشاعر مما جعله يضفي عليه هذه الصفات الجمالية.

ويطالعنا محمد بن هشام[1] بعبارات يشبه فيها قصر الزهراء بالجنة حيث يقول:

وكأن الوري بأفنية الزهراء من كل ملة وقبيل
موقف الحشر قد تبدى أو الجنة قد أزلفت لأهل الدخول [2]

فليس من المصادفة أن يجعل قصر الزهراء جنة بل جاء وفقا لألفته لذلك المكان فحاول أن يضفي عليه أروع التشبيهات و هي المكان المقدس – أي الجنة – وكثيرا ما أثار هذا المكان – الجنة – مشاعر الشاعر الأندلسي وأحاسيسه [3].

ومن الأماكن التي ألفها الشاعر الأندلسي أيضا هي أماكن اللهو فقد ألهمت هذه الأماكن الشعراء مشاعر الألفة والشعور بالراحة والاسترخاء وتعد الرياض أحد الأماكن التي لجأ إليها الشاعر في شرب الخمرة مازجا بين أجواء الخمر وأجواء الطبيعة فهذا عبد الله بن الشمر (٢٣٥هـ) يقول:

يا حبذا ليلة نعمت بها بين رياض وبين بستان
في قبة أحدق السرور بنا فيها رغابت نحوس كيوان
يكف ساق رخص أناملـه مثل الغزال المروع الراني

فلي من الكأس واستدارتها سكر ومن مقلتيه سكران

(١) محمد بن هشام بن عبد العزيز بن محمد بن سعيد الخير بن الحكم بن هشام يكنى بأبي بكر كان أديبا مشهورا بالتقدم في الأدب. عاش في أيام عبد الرحمن الناصر. ينظر: جذوة المقتبس، ١٥٦/١؛ والبغية، ١٨٠/١.

(٢) التشبيهات، ٢٩١.

(٣) ينظر: أثر القرآن الكريم في الشعر الأندلسي من الفتح حتى نهاية عصر الخلافة، محمد شهاب العاني، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ط١، ٢٠٠٢م، ٢٤٠.

حســـبت بهـــرام فـــوق راحتـــه لمـــا أتـــاني بـــه فحيـــاني [1]

فهو يألف ذلك الروض، لأنه يجمع بين جمال الطبيعة والخمرة وراح يتغنى بألفة ذلك المكان الذي ضم ساقي الخمر.

ويستأنس محمد بن هشام في مجلس خمر ضمه مع مجموعة من ندمائه بين الرياض المعطرة فينشد في وصفه قائلا:

ونـــدامى كـــأنهم أنجـــم الليـــل ترامـــت بالشـــهب فـــي الآفـــاق
وكـــأن العقـــار فـــي الكـــأس شـــمس قـــد تبـــدت فـــي البـــدر قبـــل المحـــاق
فـــي ريـــاض تعطـــرت وتحلـــت فأتـــت كالحبيـــب يـــوم الـــتلاق
نورهـــا لاحـــظ بـــأعين حـــور ســـاحرات الجفـــون والآمـــاق
وكـــأن الأوراق فيهـــا ثعـــابين لجـــين تحـــدرت فـــي الســـواقي
وكـــأن الحصـــباء فـــي رونـــق المـــاء ســـنا الـــدر فـــي بيـــاض التراقـــي [2]

فهذا المجلس الذي ضم الشاعر وندماءه في ذلك المكان قد أثار إحساس الشاعر تجاه هذا المكان، ولقائهم فيه بأنه أشبه بيوم التلاقي بين الحبيب والمحبوب فجعل من نور ها ساحرا للجفون والأوراق كالثعابين، والحصباء كالدر في لمعانه، وهذه التشبيهات مستمدة من نفسية الشاعر التي تآلفت مع ذلك المكان.

لقد ظل المكان الأليف يتردد في قول الشعراء، فهو صدى لنفسيتهم ويبقى إعجابهم بتلك الأماكن مصدرا للنشوة والسعادة بل ويمنحهم الفسحة للحلم والتذكر فهذا أغلب بن شعيب[3] (٣٦٠هـ) يقول:

رب يـــوم قصـــدت فيـــه إلـــى اللهـــ ـــو وحـــولي جماعـــة شـــطار

(١) عبد الله بن الشمر، شاعر أمير الأندلس (مجموع شعره)، ١٣٦.
(٢) التشبيهات، ٢٩٢.
(٣) أغلب بن شعيب الجياني شاعر مقدم، سكن قرطبة، وكان من شعراء الناصر. ينظر: جذوة المقتبس، ٢٧١/١؛ بغية الملتمس، ٢٩٨/١.

فنزلنـــا علـــى بســـاط مـــن النـــو ... ر أنيـــق لـــم تغـــن فيـــه البحـــار
روضـــة كالســـماء لونـــا لـــرا ... ئيهـــا ولكـــن نجومهـــا نـــوار
تـــزرع اللحـــظ فـــي زروع ومـــاء ... وعـــــروش كأنهـــــا الأبكـــــار
فكـــان الريـــاض إذ نحـــن فيهـــا ... جنـــة الخلـــد حلهـــا الأبـــرار (١)

فهو يسرد علينا صفات المكان الأليف كما وجهها وعرضها في نصه الشعري، فمكان اللهو الذي لجأ إليه هو روض بساطه من نور، ولونه أشبه بلون السماء فهو يشع نورا، ولا يمكن أن يصف ذلك المكان إلا بجنة الخلد، لكي يضفي عليه أعظم معاني الألفة فجاءت هذه الأبيات بعاطفة صادقة تنم عما انعكس في نفسية الشاعر تجاه ذلك المكان، وتجد نغمة الألفة والسرور والبهجة هي الطاغية على هذه الأبيات والمشتقة من طيب ذلك المكان.

أما محمد بن عبد العزيز العتبي فهو الآخر يستهوي شرب الخمرة في أحضان الرياض حيث يقول:

إذا نفـــح النســـيم فقـــم وبـــاكر ... ريـــاض النهـــر والأنـــداد تهمـــي
ولا تشـــرب بنـــات الكـــرم إلا ... علـــى روض نـــد وبنـــات كـــرم (٢)

فالشاعر يتخير وقت هبوب النسيم لشرب الخمرة على أن يكون ذلك بين الرياض الندية، ليمتع نظره بجمال الورود والأزاهير ويشم عبيرها الفواح.

ومن الأماكن المهمة التي ألفها الشاعر الأندلسي هي أماكن المحبوبة، وهذا ما نلمس آثاره في قول ابن هانئ:

هلمـا نحيـي الأجـرع القـرد واللـوى ... وعوجـا علـى تلـك الرسـوم وعرجـا
مـــواطئ هنـــد فـــي ثـــرى متـــنفس ... تضـــوع مـــن أردانهـــا وتأرجـــا

(١) جذوة المقتبس، ٢٧١/١.
(٢) المغرب، ١٣٤/١.

منعمـــة أبـــدت أســـيلا منعمـــا تضـرج قبـل العاشـقين وضـرجا [١]

فهو يتودد إلى ذلك المكان الذي كان في يوم ما يلتقي فيه مع الحبيبة فهذه الرسوم لا تعني له شيئا لولا الحبيبة التي تسكنها ولجأ إلى أسلوب المخاطبة (هلما) طالبا من صاحبيه إعادة ذكراه في تلك الديار وإلقاء التحية والسلام على تلك الرملة الطيبة التي شهدت ذات يوم لقائه مع الحبيبة.

وفي موضع آخر يطالعنا ابن هانئ بقوله:

لتغـد غواديـــه بمنعـــرج اللـــوى مـوائح رقـراق مـن الـري متحـا
سـقته فمجـت صـائك المسـك حفـلا تسـح وأذرت لؤلـؤ الـنظم نضـجا
فلـم تبـق مـن تلـك الأجـارع أجرعـا ولم تبق من تلك الأباطح أبطحا [٢]

فهو يدعو بالسقيا لواد الأحبة، لأن الإنسان إذا ما ألف مكانا تمنى له الخير، وهذا الخير متمثل بالغيث الذي يسقي هذه الديار.

ومن الأماكن التي ألفها الشاعر الأندلسي أيضا ووجد فيها متسعا يعبر فيها عن أحاسيسه هي الأماكن الطبيعية فهذا أبو الأجرب الكلابي [٣] (ت:١٣٨هـ) يقول:

ولقـد أرانـي مـن هـواي بمنـزل عـال ورأسـي ذو غـدائر أفـرع
والعـيش أغيـد سـاقط أفنانـه والمـاء أطيبـه لنـا والمرتـع[٤]

(١) ديوان ابن هانئ، ٣٠٥-٣٠٦، الأجرع: الرملة السهلة الطيبة، عوجا: اعطفا، عرجا: اعدلا واتركا، الأسيل: الخد اللين.
(٢) المصدر نفسه، ٣٤٥، الغوادي: الواحدة غادية، السحابة تنشأ غدوة، مجت: بصقت، الصائك: اللاصق.
(٣) جعونة بن الصمة الكلابي من قدماء شعراء الأندلس والطارئين عليها وكان في مرتبة جرير والفرزدق، لقب بعنترة الأندلس، ونزل بأكناف قرطبة. ينظر: جذوة المقتبس، ٢٩٣/١؛ البغية، ٣٢١/١؛ المغرب، ١٣١/١.
(٤) جذوة المقتبس، ٢٩٣/١.

فهذه الأبيات قالها عند نزوله أكناف قرطبة حيث جمال الطبيعة والهواء النقي والماء العذب وكل مقومات المكان المحبب والتي انعكست آثارها على ذلك الشاعر فتغنى بها وبألفتها وعبر بصورة فذية تنم عن مدى الامتزاج الشعوري بينه وبين معالم ذلك المكان.

لقد شغف الشاعر الأندلسي بطبيعة تلك البلاد الفاتنة وأصبحت لدية أماكن الأندلس محببة إلى النفس يستنبط منها صورا موحية بهذه الألفة وهذا ما نجده في قول ابن عبد ربه:

تحف به جنات دنيا تعطفت ... لصائغه في الحلي شاتيه عطلى
مطبقة الأفنان طيبة الثرى ... محملة ما لا تطيق له حملا
عناقدها دهم تنوط بينها ... وقد أشرقت علوا كما أظلمت سفلا[1]

فجمالية الوصف الذي أضفاه على هذا المكان – البستان – هي متأتية من الأثر الذي تركه في نفس الشاعر فحاول أن يعطيه أجمل الصفات والتشبيهات بأن ما أحيط بذلك المكان هو جنة دنيا طيبة الثرى، واستطاع الشاعر أن ينقل لنا تلك الأحاسيس المعبرة عن ذلك المكان بأسلوب مباشر بعيد عن التكلف والأغراب.

ويمتلك المصحفي[2] (ت:٣٧٢هـ) الشعور نفسه تجاه الرياض حيث وجد فيها ما يعبر عن خلجات نفسه التي شغفت بذلك المكان ولنستمع إلى قوله:

أنظر إلى الروض الأريض تخاله ... كالوشي نمق أحسن التنميق
وكأنما السوسان صب مدنف ... لعبت يداه بجيبه المشقوق
يوم الوداع ومزقت أثوابه ... جزعا عليه أيما تمزيق

(١) ديوان ابن عبد ربه، ١٣٠-١٣١.
(٢) أبو الحسن جعفر بن عثمان بن نصر بن عبد الله بن كسيلة القيسي كان لصيق المنزلة من المستنصر بالله قديم الصحبة، برع في الكتابة والشعر، وأجاد فيهما، مر بنكبات كثيرة وألقى في المطبق حتى هلك سنة (٣٧٢ هـ). ينظر: جذوة المقتبس، ٢٨٩/١؛ مطمح الأنفس، ١٤؛ وروايات المبرزين، ٦٩؛ المغرب، ٢٥٤/٢.

والنـرجس الغـض الـذكي محـاجر تعبـت مـن التسـهيد والتـأريق
يحكـي لنـا لـون المحـب بلونـه وإذا تنسـم نكهـة المعشـوق
وكـأن دائـرة الحديقـة عنـدما جـاد الغمـام لهـا برشـق الريـق[1]

فقد ابتدأ المصحفي هذه الأبيات بفعل الأمر (أنظر) محاولا رسم صورة مرئية لذلك المكان و هذا الأسلوب لم يأت اعتباطا وإنما جاء وفقا لنظرة الشاعر المتفائلة واحتفاله بأجزاء ذلك المكان وحاول أن يبرز القيمة الجمالية للمكان من خلال الأوصاف الجميلة التي تنبئ عن موقفه النفسي تجاهه من جهة و عن رؤيته لواقعة من جهة أخرى فشبه أوراق السوسن يعاشق قد مزق جيبه يوم فراق الحبيبة، وكأن أزهار النرجس عيون قد أتعبها السهر والأرق فهذا الروض يحكي لنا حال المحب قد تغير لونه من البعد. فجاءت هذه التشبيهات لتؤكد مدى الارتباط بين الشاعر و هذا الروض.

وإلى هذه المعاني ذهب سعيد بن فرج[2] بقوله:

للـروض حسـن فقـف عليـه واصـرف عنـان الهـوى إليـه
أمـا تـرى نرجسـا نضـيرا يـومي إلينـا بمقلتيـه
نشـر حبيبـي علـى ربـاه وصـفرتي فـوق وجنتيـه [3]

حيث تتداخل الأمكنة (الروض) مع أوصاف معشوق ابن فرج – الذي لم يصرح به – وقد كان هذا التداخل حاصلا في انسجام أوصاف الروض وأوصاف المعشوق، فابن فرج يدرك تماما ما للروض من جمال وسحر ونضارة ويعرف ما

(١) ما تبقى من شعر الحاجب المصحفي، محمد محمود يونس، مجلة آداب المستنصرية، بغداد، ع١٢، ١٩٨٥، ١٩٢.
(٢) أبو عثمان سعيد بن محمد بن فرج أخوه أحمد بن فرج صاحب كتاب الحدائق، ينظر: الجذوة، ٣٥٤/١؛ المغرب، ٥٧/٢.
(٣) جذوة المقتبس، ٣٥٤/١؛ البغية، ٣٩١/٢.

يميز به حبيبه عن الآخر فأتى بكل هذا الانسجام والتآلف الذي لا نكاد نحس فرقا بين الاثنين في الوصف أو المشاعر.

إن هذا الانسجام بين الأوصاف المادية (الروض – الطبيعة) والمعشوق (الشخص – الشاعر) جاء نتيجة الارتباط الذهني الكائن في نفس ابن فرج ومشاعره بين الاثنين فالطبيعة عند الشاعر الأندلسي كل شيء في أدبه وفكره ومشاعره والمعشوق حالة نفسية يريد الشاعر أن ينقل تجربته إلى المتلقي بأي شكل كان، ولا ريب أن تكون الطبيعة أو أن يكون الروض هنا حاملا لأحاسيس الشاعر وعواطفه فالمكان الأليف – بأشكاله صورة نفسية تعكس الألفة والولاء للمكان الذي يعيش فيه الشاعر ومن ثم فهو أحداث وأحاديث يقصه علينا جراء تلك النفسية.

وثمة نوع آخر من الأمكنة التي ألفها الشعراء و هو المكان الديني فكل شاعر يألف ما يوافق نفسه و هواه، فهذا الشاعر الفقيه عبد الملك السلمي [1] (ت:٢٣٨ هـ) يجد ضالته في مدينة الرسول ﷺ فراح يقول فيها:

لله در عصابة صاحبتها ... نحو المدينة تقطع الفلوات
ومهامة قد جبتها ومفاوز ... ما زلت أذكرها بطول حياتي
حتى أتينا القبر قبر محمد ... خص الإله محمدا بصلاة
خير البرية والنبي المصطفى ... هادي الورى لطرائق الجنات
لما وقفت بقربه لسلامه ... جادت دموعي وأكف العبرات

ورأيت حجرته وموضعه الذي ... قد كان يدعو فيه في الخلوات
مع روضة قد قال فيها أنها ... مشتقة من روضة الجنات
وبمنزل الأنصار وسط قبابهم ... بيت الهداية كاشف الغمرات

(١) أبو مروان عبد الملك بن حبيب بن سليمان بن هارون بن عباس بن مرداس السلمي ألف كتاب الواضحة في الفقه سمع بالأندلس وتفقه حتى صار أعلم من بها وقد جمع إلى علم الفقه والحديث اللغة والإعراب والأدب. ينظر: تاريخ علماء الأندلس، ٤٥٩/١؛ الجذوة، ٤٤٧/٢؛ مطمح الأنفس، ٧١؛ البغية، ٤٩١/٢؛ المغرب، ٩٦/٢.

وبطيبة طابوا ونالوا رحمة ... مغنى الكتاب ومحكم الآيات
وبقبر حمزة والصحابة حوله ... فاضت دموع العين منهمرات
سقيا لتلك معاهدا شاهدتها ... وشهدتها بالخطو واللحظات
لا زلت زوارا لقبر نبينا ... ومدينة زهراء بالبركات (١)

فهو يجد في تلك الديار عبق الماضي السعيد فشده نحو ذلك المكان شوق غامر وعاطفة جياشة نلمس آثارها من خلال تذكره لذلك الماضي وبكل جزئياته من قطعه للصحراء والمفاوز حتى وصوله إلى قبر النبي محمد ﷺ ذلك المكان الذي ارتبط به ارتباطا روحيا ونفسيا فيصف لنا شدة الموقف عند وقوفه على قبر الرسول وقبور الصحابة فيبدي علامات الحب وتظهر علامته من خلال البكاء، فضلا عن ذلك فإن الشاعر قد لجأ إلى استخدام كثافة مكانية عالية من خلال هذه الأبيات (حجرته، روضة، منزل الأنصار، قبر الرسول، قبر حمزة والصحابة) وكل هذه الأماكن تعكس رؤية الذات الفكرية وعمق الصلة والإحساس الدقيق بتلك الأماكن تعكس رؤية الذات الفكرية وعمق الصلة والإحساس الدقيق بتلك الأماكن ثم يلجأ إلى الأسلوب التقليدي لدى الشعراء وهو الدعاء بالسقيا لتلك الديار. وقد اتسمت هذه الأبيات بعاطفة صادقة وأحاسيس مرهفة كان أساسها الخلفية الدينية للشاعر والتعلق والشوق إلى تلك الأماكن، هذه الخلفية الدينية خلقت نوعا من الألفة بين الشاعر والأماكن المقدسة هذه.

ويبدو أن المكان يصبح مألوفا بساكنيه الذين يألفهم المرء ويتودد إليهم وعلى العكس من ذلك فإن المكان يصبح غير مألوف ما لم يألف الناس الذين يعيشون فيه فالسجن على الرغم من كونه مكانا معاديا يصبح مألوفا لدى محمد بن مسعود البجاني (٢)

(١) نفح الطيب، ٤٦/١.
(٢) أبو عبد الله محمد بن مسعود البجاني أصله من بجانه وسكن قرطبة فنسب إليها، كان كثير الشعر جزل المقاطع، حسن المطالع، جيد الابتداء، لطيف الاختراع، وفد على المنصور بن أبي عامر واتهم بزهق في دينه فسجنه بالمطبق مع الأمير الطليق توفي بعد (٤٠٠ هـ). ينظر: جذوة المقتبس، ١٥١/١؛ الذخيرة، ٥٦٢/١/١-٥٦٣؛ البغية، ١٧٠/١؛ نفح الطيب، ٣٨٨/٣.

(ت:٤٠٠هـ) لكون ذلك المكان ضم الأمير الشريف الطليق فراح يبارك ذلك المكان ويألفه من خلال قوله:

غدوت في الجب خدنا لابن يعقوب ... وكنت أحسب هذا في التكاذيب
رأت عداتي تعذيبي وما شعرت ... أن الذي فعلته ضد تعذيبي
راموا بعادي عن الدنيا وزخرفها ... فكان ذلك إدنائي وتقريبي
لم يعلموا أن سجني لا أبا لهم ... قد كان غاية آمالي ومرغوبي
يا ابن الخلائف من مروان واحزني ... على ضياعك يا ابن الصبية الشيب
وفيك ما يتسلى العاشقون به ... من حسن خلق ومن ظرف ومن طيب
بلى قد فجعت نفسي لمحتجب ... قد كان عن لحظ عيني غير محجوب

(١)

فقد تحول السجن في هذه الأبيات إلى مكان يألفه الشاعر ورأى أن الذي في سجنه ليس من التعذيب في شيء، وإنما هو الراحة فعداة الشاعر أرادوا إبعاده عن الدنيا وزينتها إلا أنه بإدخالهم الشاعر للسجن قد قربوه من الدنيا وما ذلك إلا لكونه أي السجن يضم الأمير.

ونلمح في هذه الأبيات أثرا للقصص القرآني حيث شبه سجنه بجب يوسف عليه السلام إلا أن الفارق بينهما هو أن البجاني قد ألف هذا المكان على العكس من مكان يوسف فراح يتغنى بصفات وجمال المكان الذي جمعه مع الأمير فأصبح غاية آماله ومناه.

ويمكن القول إن الأندلس في أغلب أماكنها أصبحت مكانا للألفة بما ضمته من جمال طبيعي منحت الشعراء ((خيالا جميلا وتشابيه حلوة فكانت الرقة والنعومة ميزة أسفارهم والفضل في ذلك للأندلس وما لربوعها من تأثير في نفوسهم حتى كان حبهم

(١) الذخيرة، ٥٦٣/١/١.

لها عبادة)) [1]. فضلا عن ذلك فإن المجتمع الأندلسي كان يميل إلى التسامح الديني فلا فرق بين عربي وبربري زيادة على الاستقرار السياسي والامتزاج الاجتماعي وما واكبه من رخاء في العيش وكثرة في الأموال حتى استأنست النفوس وبدأ الشعراء يتغنون بذلك الفردوس وأحسوا تجاهه بألفة وأمان حتى قال البعض فيها:

لله أنـــدلس ومـــا جمعـــت بهـــا ... مـن كـل مـا ضـمت بهـا الأهـواء
فكأنمـــا تلـــك الـــديار كواكـــب ... وكأنمـــا تلـــك البقـــاع ســـماء
وبكـــل قطـــر جـــدول فـــي جنـــة ... ولعـــت بـــه الأفيـــاء والأنـــداء [2]

إي تعلق هذا وأي إعجاب بتلك البلاد فهي جامعة لكل ما ترغب فيه النفوس فهـي أشـبه بالكواكـب الشـامخة فـي وسـط السـماء وفـي كـل مسـافة جـدول. إن هـذا الإعجاب مرده إلى التلاحم والارتباط الذي انعكس إيجابا في شعرهم.

ومن خلال هذا العرض لأبرز الشواهد الشعرية التي جسدت المكان الأليف وجدنا أن الشاعر الأندلسي قد ألف تلك الربوع والقصور والرياض والأمكنة الدينية والأندلس بصورة عامة وأصبحت المكان المحبب لهم واستطاعوا من خلال تلك الأمـاكن إظهـار أحاسيسـهم الصـادقة تجـاههم وألـف بعضـهم المكـان المعـادي لألفـة أصحابه. ويمكن القول أخيرا إن الشاعر الأندلسي استلهم كل عناصر المكان المحبب ووظفها في شعره حتى خرجت ألفاظهم سهلة وعباراتهم جزلة ومعانيهم واضحة تنم عن التلاحم بين الشاعر والمكان الذي ألفه.

(١) أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث، بطرس البستاني، دار مارون عبود، دار الجليل، بيروت، ١٩٧٩هـ، ٧٠.
(٢) نفح الطيب، ٢٢٦/١-٢٢٧.